خولة أعبيد

ليليلاس

قصة

ليلياس

خولة أعبيد

معلومات الكتاب

عنوان العمل: ليلياس

نوع العمل: قصة قصيرة

اسم الكاتب: خولة أعبيد

تصميم الغلاف: خولة أعبيد

تعبئة وتنسيق: خولة أعبيد

صفحة الكاتبة: Khaoula Abid

تاريخ الإصدار: 2024

حقوق النشر محفوظة للكاتب©

إهداء

إلى كل من أصاب الجمود قلبه،

إلى كل من كان يسير على الدرب ثم انتكس،

إلى كل من حال البرود بينه وبين أحبته،

مادامت الشمس تشرق من مشرقها، والروح في مودعها، فهناك وقت للتوبة والرجوع فأسرع في إيجاد الطريق!

شكر

بأنامل صغيرة، وخيوط حروف عربية، حِكْتُ كلمات الشكر البسيطة التي مهما عدَّلت وعدَّلت لن تكون كما أردت لها أن تكون.

أود أولًا أن أشكر أستاذ الرياضيات الذي كان ينادينا "بالأميين"، لأننا لم نكن نجيد حل المعادلات، وكان يقول دائمًا: كل منا أمِّيٌّ في شيء لا يجيده. أشكرك، فلولاك لما أدركت أنني أمّية في هذه الحياة، ولولا كلامك لما غُصت في بحارها لأتعلم أبجدياتها، ولا استطعت تهجئة أسرارها. لا أعلم إن كنت على قيد الحياة أم أنك ودعتها إلى دار البقاء، ولكنني وبالرغم من قسوتك وفظاظتك إلا أنني أشكرك !

ثم أتوجه بالشكر ثانيًا إلى "خليفة إسماعيل"، الشخص الذي دعمني ولم يبخل عني بأي معلومة، فعندما سألته عن جزئية ما كان العمل ليكتمل من دونها، سارع في مساعدتي وإثراء معلوماتي الفقيرة وبدد أمّيتي.

شكرًا لكل من دعمني؛ فبدعمكم أستمر، وشكرًا لمن حطمني؛ فبتحطيمكم أعلم أنني على الطريق الصحيح!

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها، إلّا التي هو قبل الموت بانيها.

1

أشرقت الأرض بنور تلك الشمس التي أطلت على العباد من رب العباد، يوم كغيره من الأيام، يستيقظ ذاك الشاب حسن من سباته العميق، لولا رنين المنبه الذي يعلو كل دقيقة ليصم الآذان لما استيقظ منه، غريب أمره توقظه رناتٌ صغيرةٌ ولا تزلزل روحه "الصلاة خير من النوم". يخرج من سريره متثاقلًا، يتوضأ ويصلي، لا تدري هل يصلي الصبح أم النوافل ما قبل الظهر؟

حسن شابٌ في مقبل العمر، طويل القامة، منكوش الشعر؛ لو بقي طويلًا في الخارج لعششت الطيور في شعره، كان فيما مضى مواظبًا على صلواته، لكن منذ أن انتقل للعيش بمفرده صار يتكاسل عنها، أحيانًا يؤخرها، وأحيانًا يستثقلها فيتركها.

بعد انتهائه من الصلاة، دخل إلى المطبخ ليحضّر بعض الطعام ليُسكت به تلك العصافير التي تزقزق داخل معدته، أكمل وجبته وهيَّأ نفسه للخروج من المنزل. كان يسير هائمًا على وجهه، كل شيءٍ ثقيلٌ على قلبه؛

الطريق التي يسير فيها، والوجوه التي سيلتقي بها، كل هذا يصيبه بثقلٍ ومغصٍ شديدين، لقد اشتاق لحياته البسيطة تلك التي كان يعيشها في كنف أهله، لكن الآن لم يعد الأمر كذلك بل يتوجب عليه الخروج إلى سوق الشغل وترك حياة الترف. يواصل حسن سيره في محاولةٍ بائسةٍ لكي يغض بصره عن أولئك الفتيات اللاتي اندثر الحياء من قاموسهن، رغم تقصيره لكنه لايزال متمسكًا ببعض مبادئه. وأخيرًا وصل إلى مقر عمله، ذلك المكان الذي يبغضه أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة، لكنه أفضل من كونه عالةً على المجتمع، فبعد طرده من وظيفته الأولى عاش حياةً كلها اكتئاب، لولا هذه الوظيفة التي وجدها ربما كان لينهي حياته. جلس في مكانه المخصص وباشر العمل ساعات من الملل والمهام الرتيبة، انتشلها منها رنين هاتفه فأخرجه من جيبه لتفقد المتصل وسرعان ما ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهه، إنه صديقه عمر؛ الشخص الوحيد الذي يقيم خطواته كلما انحرفت، قطع رنين الهاتف ورد بلباقة:

- أهلًا عمر كيف الحال؟
- بخير الحمد لله، كنت فقط أود أن نلتقي اليوم الساعة الخامسة عصرًا أريدك في موضوع هام.
- طبعًا كنت في حاجة للجلوس معك قليلًا.

- حسنًا ليكن موعدنا الخامسة بعد العصر بإذن الله

كان هذا آخر ما قيل قبل إغلاق الخط، كم هي بسيطةٌ المكالمات بين الرجال، تخيلوا لو كانت بين فتاتين! صدقوني ربما لن تنتهي إلا بعد قرن من الزمان. نعود إلى حسن والذي شعر وكأن الحياة دبت فيه من جديد، فبعد هذه المحادثة البسيطة مع رفيق دربه عمر انتعشت أواصره، وزالت غمامة الكآبة من على محياه، جميلٌ جدًّا أن يكون لك رفيق في هذه الحياة يخفف عنك حملها. بعد مدة مرت وكأنها دهر، أخيرًا دقت الساعة الرابعة والنصف. خرج حسن من مقر عمله وسار نحو المكان الذي سيلتقي فيه بعمر، صحيح أنه لم يخبره عن المكان لأنها ليست أول مرة سيلتقيان فيها، رغم أن حسن لا يحب تلك الحديقة فهو دائمًا يقول:

- الحديقة لا يلتقي فيها سوى العشاق أو الأطفال، أما شابين مثلنا فإن الاجتماع في المقهى قد يكون أفضل!

لكن عمر كان دائمًا يعارضه ويرد عليه:

- إن المقاهي لا تخلو من روائح السجائر وديننا أمرنا أن نحافظ على صحتنا.

بينما كان حسن في طريقه لمح جنازةً تمر أمامه، كان هناك حشدٌ كبيرٌ من الناس، لمَّا نظر إلى ذلك الجمع الغفير والموكب المهيب؛ ارتعشت

أواصره، وشُلت حركته، وسافرت به الذكريات إلى جنازة والده التي خلَّفت جرحًا غائرًا في قلبه، ذلك الجرح الذي لم يُشفى ولم يلتئم. بعد كل تلك السنوات التي مرت على المشهد لا يعلم لماذا تذكره الآن. حاولت دمعةٌ صغيرةٌ التمرد والسيل على خديه لكنه وأدها في محجرها وتابع مسيره.

غريب أمرك أيها الإنسان، تظل في هذه الحياة راكضًا من حلمٍ إلى حلمٍ، لاهثًا خلف المناصب التي لا تعد ولا تحصى، وفي يومٍ غير معلوم على حين غرة تسحب منك ورقتك لتغوص في ظلمات القبر المخيف. جنازة مرَّت لا يُرى منها إلا صندوقٌ صغيرٌ بداخله شخص ملفوف بقطعة قماش، لا تدري أ هو رجل أم امرأة، مهندس أم طبيب، غني أم فقير، لا شيء معلوم فلقد صار الكل سواء. حتى أن تلك الألقاب التي سعى إليها تلاشت وتغيرت، نُزِع منه اسمه ونسبه الذي ظل عليه مدافعًا وصار اسمه الجديد "المرحوم".

بعد نصف ساعة من المشي وصل حسن إلى وجهته، وجد مقعدًا شاغرًا فجلس به وبدأ يتأمل ما حوله، أطفال صغار يلعبون في كل شبر من تلك الحديقة، ودَّ كثيرًا لو أنه عاد إلى ذلك الزمن حيث لا مسؤوليات ولا إحساس بتأنيب الضمير، ودَّ أيضا لو أن الظروف لم تكن حائلًا بينه وبين محبوبته، عندها لكان أحد أولئك الأطفال ملكًا له. مر الوقت ثقيلًا وكأن

عقارب الساعة حُملت على قوقعة سلحفاة! وأخيرًا تراءى له صديقه عمر، ذلك الشاب طويل القامة، متوسط الوزن، حليق الشارب، طويل اللحية، هيئته تدل على أنه فقيه أو إمام بأحد المساجد، حتى لباسه وسجادة الصلاة الموضوعة على كتفه توحي بذلك، ابتسم في وجه حسن وحياه بحبور قائلًا:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حسن كيف حالك؟

نظر إليه حسن وقال معاتباً:

- أين كنت يا سيادة الفقيه؟ ألم تقل أن نلتقي الساعة الخامسة؟ انظر كم الساعة إنها الخامسة والنصف! هذه المرة سامحتك، لكن المرة القادمة سوف أتخذ موقفًا!

صمت عمر لحظة قبل أن يقول:

- أولًا عليك رد السلام، وثانيًا تأخرت عن موعد البشر لأنني كنت في موعد مع خالق البشر، انظر إلى نفسك تأخرتُ عنك نصف ساعة وكيف كان رد فعلك، في رأيك ماذا عن الذي يؤخر صلاته ومع ذلك يجد في كل مرة فرصة ليتوب لكنه يتجاهلها؟ ذكرت أمر التوبة لأنه صلينا صلاة الجنازة بعد صلاة العصر وهذا ما جعلني أتأخر عنك.

نكس حسن رأسه بعد أن أحس بكلام عمر يخترق قلبه، نظر إليه عمر ومد إليه سجادة الصلاة وأردف:

- خذ وأقم صلاتك، على الأرجح أتيت إلى هنا قبل أن تصلي، هناك غرفة للصلاة على بُعد خطوات من هنا، اذهب وسوف تجدني هنا بعد عودتك.

أخذ حسن السجادة وذهب في مضضٍ وبسرعة أتم صلاته وعاد إلى عمر، نظر إليه عمر في حسرة وقال:

- لقد تغيرت كثيرًا يا حسن، لم تعد الشاب الذي أعرفه، هل لهذه الدرجة مات قلبك؟ وانتكست عن دينك؟ حسن اسمعني وحاول أن تنقذ نفسك قبل فوات الأوان.

تنهد حسن تنهيدةً طويلةً قبل أن يرد:

- لقد حاولت! كل يوم أجاهد نفسي، أتوب وأعود، أتوب وأنتكس من جديد، لقد تعبت يا عمر، حتى أنا صرت أكره نفسي، هل بهذا صرت منافقًا؟ صدقني لم أعد أعرف ماذا أفعل؟ هل سأدخل إلى جهنم؟ حتى حياتي صارت مقلوبةً رأسًا على عقب، هل هذه هي معيشة الضنك؟ أنا.. أنا حقًّا متعب يا عمر!

تساقطت بعض الدموع من عينيه، ربت عمر على ظهره وقال:

- لا تيأس يا رفيقي فإنه لا يَيأس في روح الله إلا القوم الكافرون، لا تدع للشيطان أن يدخلك من هذا الباب، أغلق عليه كل الأبواب ولا تقلق يا حسن فأنت لست منافقًا وإنما أنت أواب.

تساءل حسن في حيرة وعدم فهم:

- أواب؟ لكن ماذا تعني؟
- تعني كثير الرجوع إلى الله كثير التوبة، أي هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. رَجَّاع إلى الله -تعالى- من المعاصي للطاعات. قال الله في كتابه في سورة الإسراء الآية الخامسة والعشرين: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا). وصدقني ندمك هذا ومحاولاتك في التوبة دليل على أن قلبك مازال حيًّا فقط عليك أن تراجع نفسك وستعود إلى سابق عهدك.
- ما العمل؟ وما الحل؟ وكيف أعود إلى سابق عهدي؟
- سافر وغير الجو، ابتعد عن منغصات العيش، إذا لم تخني الذاكرة لديك بيت في القرية؟ اذهب إلى هناك حتى تصفو روحك وتعود لعباداتك.

ابتسم حسن بعد هذا الحديث وعانق صديقه عمر، عجيبٌ أمر هذا الشاب بكلمات بسيطة استطاع أن ينتشل قلب حسن الضائع من بئر الحيرة الذي سقط به واستطاع أن يجعل قلبه يرفرف، وروحه تزهر. من قال أن الكلام والنصح بلا قيمة، بسبب نصيحةٍ صادقةٍ يمكن يتغير مسار حياة بأكملها، فلا تستهن أو تبخل بكلمة طيبة أو تشجيع أو نظرة تقدير أو حتى سؤال عن الحال، لأننا كلنا ومن دون استثناء نمر بفترات صعبة ونحتاج فيها للدعم بكل صوره من فترة لأخرى.

عاد حسن أدراجه إلى حيث يعيش وبدأ يصعد الدرج بخفة ورشاقة لم يعهدهما من قبل، عادةً كان يستعمل المصعد، لكن بعد لقاءه مع عمر صار خفيفًا كالفراشات. دخل إلى شقته وأحضر حقيبته ووضع فيها ثيابه، لم تكن لديه فكرة عن المدة التي سيقضيها لذا أخذ أكبر عدد ممكن من الثياب، بقي يدور في الشقة للحظات إلى أن اهتدى إلى ما كان يبحث عنه، أمسك بمصحفه ومسح عنه الغبار الذي يعلوه وغمغم بحزن وحسرة:

- تركتك للغبار فاتسخ قلبي، لكن هذا آخر عهد لنا بهذه الحال!

ألقى نظرةً أخيرةً إلى شقته، تنهد وأغلق الباب بإحكام، نزل بسرعة وطرق بابًا بالأسفل ترجل منه رجل خط الزمان منحنياته على جبينه ووجه،

واشتعل رأسه شيبًا، استغرب الرجل من وجود حسن في هذا الوقت أمام منزله فسأله متعجبًا:

- خيرًا يا ولدي حسن؟!
- لا شيء يا عبد القادر فقط سأسافر لبضعة أيام وأريدك أن تعتني بشقتي إلى حين عودتي.
- حسنًا يا ولدي في أمان الله

غريب أمر هذا الشاب ينادي رجلًا في سن جده باسمه مجردًا، لا ألقاب ولا احترام، غريب أمر هذا الجيل! بعد هذا الحوار المقتضب سلَّم حسن على السيد عبد القادر ثم غادر المبنى متجهًا نحو المحطة الطرقية باحثًا عن حافلة تسير به لوجهته، لم يستغرق الكثير من الوقت في البحث عمن يرشده فهؤلاء ما أن يروك حاملًا حقيبة سفر سوف يأتون إليك قبل أن يرتد إليك طرفك، لا أحد يعلم من أين يظهرون المهم أنهم يظهرون ومعهم عروض مغرية؛ هذه حافلة متجهة إلى هذه المدينة وتلك متجهة لتلك، كلُّ ما عليك هو الاختيار وتحريك تلك العملات والوريقات في جيبك، وهذا ما فعله حسن بالضبط، تبع الرجل إلى أن أوصله لحافلته سأل حسن:

- هل يمكنني الجلوس بجانب النافذة؟

رد الرجل وهو يقوم بعدّ المال الذي أخذه من حسن:

- بالطبع يا أستاذ يمكنك الجلوس في أي مكان!

شكر حسن الرجل واتخذ مكانه بجانب النافذة في انتظار أن تمتلئ الحافلة بالركاب، لم تمر سوى دقائق قليلة حتى انطلقت الحافلة، بعد ساعتين من الزمن وصل حسن إلى القرية، ملأ رئتيه بالهواء المنعش كرر الأمر مراتٍ ومراتٍ كأنه ينظف جوفه من قرف المدينة وهواءها. سار بضع خطوات إلى أن وصل إلى وجهته؛ بيت صغير أقرب ما يكون إلى الكوخ الذي يتوسط الغابة، كان منزلًا متواضعًا تحيط به أشجار التوت وبعض الشجيرات الصغيرة الأخرى، تقدم حسن ببطء نحو المنزل، فتح الباب ودخل، كان الداخل أكثر فخامةً من الخارج لهذا يقال: "لا تحكم على الكتاب من عنوانه" كان المنزل مرتبًا أكثر من حياة حسن، وجه الشبه الوحيد بينهما هو أنه مليء بالغبار تمامًا مثل قلبه، وضع حسن حقيبته وأرسل رسالةً لعمر لكي يطمئنه بوصوله. سعل حسن عدة مرات وقال:

- يجب تنظيف المكان من الغبار أولًا وبعدها أرى ماذا سأفعل!

وهكذا بدأ حسن بتنظيف غرفة المعيشة مرورًا بالمطبخ ثم الغرف الأخرى، بعد جهد جهيد خرَّ في سبات عميق لم يفق إلا على صوت هاتفه الذي يرن، انتفض بسرعة من مكانه وقال متسائلًا:

- يا إلهي كم لبثت؟

نظر إلى هاتفه ليبدد حيرته، ذهل عندما وجد الساعة تشير إلى الخامسة صباحًا وضع يده على رأسه وقال:

- لم أهرب من الانتكاسة لأواجه انتكاسةً أخرى!!

دلف إلى الحمام توضأ وصلى ما فاته من صلوات ثم حمل مصحفه يقرأ ما تيسر منه في انتظار آذان الفجر، صلى الفجر ثم عاد إلى نومه.

2

تسللت خيوط الشمس الذهبية كعادتها إلى غرفته، معلنةً بداية يوم جديد. استيقظ حسن بعد صراع طويل مع السرير، جهز نفسه ونزل إلى المطبخ يبحث عن لقيمات يقمن صلبه، بعض الخبز مع زيت الزيتون وكأس من الشاي. وجبة رغم شُحِّها إلا أنها كانت تفي بالعرض، حامدًا الله وشاكرًا إياه خرج من البيت متوجهًا إلى البستان، متوكلًا على الله في كل خطوة يخطوها. بعد بضع خطوات، أخيرًا وصل إلى مبتغاه، فصار يسير بين الشجيرات وتلك النسمات الباردة تداعب وجهه السمح. جلس بالقرب من شجرة التوت وبدأ يقرأ من مصحفه كان يقرأ بصوت مرتفع تساقطت بعض الدمعات من عينيه مسحها وقال:

- لو لم أكن عنيدًا واستمعت إلى كلام أبي لكنت الآن حاملًا لكتاب الله، أتلو ما أشاء وقتما أشاء، لكن لم يفت الأوان بعد مادامت النية قائمةً والروح في جسدي سوف أعود وأكمل حيث وقفت.

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وأكمل تلاوته بصوته العذب؛ ذلك الصوت يفصلك عن العالم، ولأول مرة بعد فترة طويلة عاد لقراءته

الخاشعة. في ظل هذه الأجواء التي تذكرنا بقناة المجد للقرآن الكريم سمع حسن بعض الأصوات من بعيد، قادمةً من ناحية شجرة التوت. ذهب مسرعًا ليرى ماذا يحدث. صدم مما رأت عيناه، فتاة صغيرة تتسلق الشجرة لقطف ثمار التوت. لمحته من بعيد وارتبكت فاختل توازنها كادت أن تسقط أرضًا. سارع بأقصى ما يملك لكي يلتقطها ثم وضعها على الأرض وقال لها معاتبًا:

- من أنت وماذا تفعلين هنا أ تريدين إهلاك نفسك أم ماذا؟

امتلأت عيناها بالدموع جراء عتابه لها، وقالت له:

- لكنني أحب أن أتي إلى هنا، أتسلق هذه الشجرة، وعندما سمعت تلاوتك العطرة، قررت البقاء لأطول مدة لذلك استغللت صغر حجمي واختبأ هنا لكنك قد كشفتني!

نظر إليها، وقال:

- يا صغيرتي أنا أعاتبك فقط لسلامتك، فأنا أخاف عليك. لكن، إن كنت تحبين سماع تلاوتي فقط أخبريني! لا داعي لتسلل والاختباء.

ابتسمت، وبدأت تقفز فرحًا وهي تقول:

- شكرًا لك يا عم!

ضحك حسن من تصرف الفتاة وقال:

- اسمي حسن لا داعي لمناداتي بعم، وأنت ما اسمك؟

ابتسمت الفتاة وقالت:

- اسمي ليلياس يا عم

وضعت يدها على ثغرها وأردفت:

- أقصد ليلياس يا حسن، لكن ماما أخبرتني أن أنادي الأشخاص الأكبر مني بألقاب مثل "عم" أو "خالة" فهذا أمر غير لائق أن أنادي الأكبر مني باسمه مجردًا.

تذكر حسن وقاحته عندما ينادي السيد عبد القادر باسمه مجردًا رغم أنه في سن والده وربما أكبر بكثير، شعر حسن بالخجل من نفسه لكنه تدارك الأمر وضحك مرةً أخرى، ولأول مرة منذ مدة طويلة يضحك من قلبه! ربت على شعر الفتاة وقال لها:

- لا بأس يمكنك مناداتي كيفما شئت، لكن يا ليلياس اسمك غريب نوعا ما لم أسمع به من قبل.

ابتسمت الصغيرة وردت:

- بابا من سماني بهذا الاسم أخبرني أنه فصيلة من الأزهار
- حقا؟ أخبرِيني المزيد عنها
- حسنا يقول بابا أن هذا الاسم من الطبيعة لأنه يرمز إلى نوع من الزهور الأرجوانية التي تنمو على قمم الجبال، وهي زهرة معروفة بجمالها وروعتها وهي من الأزهار النادرة ولكنها شهيرة في العالم كله. وهو اسم أجنبي عرفه العرب لفترة وجيزة وبدأوا في تسميته للمواليد الجدد لأنه يرمز إلى نعومة وحنان الفتاة التي في جمالها وحنانها تشبه الزهرة؛ فهو يدل على أن الفتاة مثل وردة نادرة، وصاحب الاسم يتميز بالذكاء والحكمة والمرونة.

فغر حسن فاهه من هذا الكم الهائل من المعلومات، وكيف لطفلة صغيرة أن تتذكر كل هذا؟ بينما هو شاب في الثلاثينيات من عمره لا يعلم إلا القليل! ابتسم ابتسامةً صغيرةً وقال:

- ما شاء الله هذا رائع جدًّا يا ليلياس يبدو أنك تشبهين اسمك كثيرًا؛ ذكيةٌ ورقيقةٌ، لقد فهمت لماذا يقال لكل امرئ من اسمه نصيب!

اعتلت أمارات الخجل وجه ليلياس وانسحبت ببطء مودعةً حسن قائلةً:

- إلى اللقاء يا عم! عليَّ الذهاب الآن نلتقي غدًا بإذن الله

أومأ حسن برأسه علامة الإيجاب، ثم حمل مصحفه ودخل إلى منزله عاقدًا العزم على تبديد جهله وكسب القليل من المعارف، نظر إلى تلك المكتبة الموضوعة في غرفة المعيشة وبدأ يتأمل محتواها سحب كتابًا عشوائيًّا وقال:

- لا يهم بما سأبدأ ففي النهاية لم أقرأ شيئًا منذ مدة طويلة ولديَّ وقت طويل ولا شيء لفعله

بدأ حسن يقسم يومه بين أدائه لصلواته ولقراءة تلك الكتب، كان أغلبها كتبًا فقهيةً، ربما بدأ يتخذ خطوات في الطريق الصحيح، فالله إذا أراد خيرًا بالعبد فقهه في دينه، وهذا ما حدث مع حسن.

أنهى يومه بصلاة العشاء ليبدأ يومه الموالي بقيام الليل وصلاة الفجر، لقد صار مواظبًا أكثر من ذي قبل! أشرقت الشمس كعادتها فدلف حسن إلى المطبخ تناول إفطاره وأخذ صحنًا كبيرًا وخرج إلى البستان، اتجه إلى إحدى الأشجار وبدأ يملأ الصحن بحبات التوت وهو يردد بعض الآيات بصوته العذب، ما هي إلا دقائق حتى ظهرت ليلياس من بين الأشجار،

جلست القرفصاء وبدأت تسمع تلاوة حسن كانت سعيدةً للغاية. أكمل حسن ملأ الصحن وجلس بجوار ليلياس التي فرحت كثيرًا بذلك وبدأت تأكل التوت بشراهة، حتى صارت يديها وفمها ملطخين باللون الأحمر، ضحك حسن من منظرها الطفولي ومدَّ لها منديلًا لكي تنظف نفسها وقال لها ممازحًا:

- يبدو أنك التهمت التوت كله يا مشاكسة ماذا عني أنا أليس لي نصيب منه؟

زمَّت ليلياس شفتيها وضيقت عينيها وقالت:

- ما ذنبي إن كان التوت لذيذًا سلمت يداك يا عم أحسنت في اختيار التوت الطازج!

ابتسم حسن ورد عليها:

- لم أفعل شيئًا سوى أنني ملأت الطبق!

وضعت ليلياس الطبق جانبا واعتدلت في جلستها ثم قالت:

- لكن لم يفرضه عليك أحد! كما أن بابا أخبرني أن أخبر كل من أراه بشيء جميل، فالكلمة الطيبة صدقة، وأنَّ الحياة قصيرة وقد لا

تتيح لنا فرصةً للبوح بكل ما في قلوبنا لذا يجب علينا ألا نحرم الآخرين من سماع كلامٍ جميلٍ!

للمرة الثانية ذهل حسن من هذه الفتاة لا يدري هل يخاف منها أم يطمئن لها، لكن كلامها يبدو منطقيًّا ومقنعًا ابتسم وقال لها:

- كم أنت ذكية يا ليلياس!

فرحت ليلياس وقالت:

- شكرًا يا عم وأشكرك أيضا على التوت كان لذيذًا لكن عليَّ الذهاب الآن

اختفت ليلياس مرةً أخرى بين الأشجار، غريب أمر هذه الفتاة شكلها شكل الصغار لكن كلامها أكبر من عمرها بكثير!

3

بعد رحيل ليلياس ظل حسن جالسًا مكانه يفكر فيما قالته له ليلياس، بدأ يتذكر تلك الفرص التي ضيعها طوال حياته؛ تذكر كم من مرةً جاءت أخته تبشره بنجاحها في الامتحان لكن رده كان باردًا، تذكر انطفاء بريق عينيها بسبب جفاءه، تذكر كسرة قلب أمه عندما أعدت وجبته المفضلة لكنه أكلها بصمت. صحيح أن حياتهن لا تتوقف على إطراءه لكنه قادرٌ على إنعاش قلوبهن. بقي يفكر حتى تذكر حديثًا قرأه في أحد الكتب التي كان يطالعه بالأمس عن رسول الله ﷺ : "إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه" بدأ حسن يفكر في الأمر وأنه عليه إذابة ذلك الجدار الجليدي الذي بناه بينه وبين أهله. وبينما هو غارق في أفكاره انتشله منها صوت هاتفه نظر إلى الرقم وقال:

- إنه السيد عبد القادر يا ترى ماذا يريد مازال آخر الشهر بعيدًا حتى يطلب الإيجار؟

ضغط على الزر الأخضر ووضع الهاتف على أذنه ليسمع:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته هل أنت السيد حسن نجار؟
- وعليكم السلام، نعم أنا هو ولكن من أنت؟ ولماذا تتصل من هاتف السيد عبد القادر؟
- أنا ابنه، وأريد أن أخبرك أن والدي انتقل لدار البقاء إنا لله وإنا إليه راجعون

فجع حسن من هول ما سمع فالأمر صادم جدًا بالنسبة له، كيف وقد رآه قبل سفره؟ ومنذ متى والموت يخبرك بموعده إنه يأتي وحسب. سمع صوتًا من الهاتف:

- ألو هل أنت معي؟
- نعم.. نعم
- أعلم أن الأمر صادم بالنسبة لك كما هو الأمر بالنسبة لي، لكن لا نقول إلا ما يرضي ربنا.

لم يعرف حسن ماذا يقول ولكنه قال في نهاية المطاف:

- عظم الله أجركم ورزقكم الصبر والسلوان

كانت هذه آخر جملة قالها قبل أن ينهي المكالمة، كان الأمر صعبًا جدًا حتى أنه تذكر كلمات ليلياس عندما أخبرته أنه قد يأتي يوم يرحل فيه

الأشخاص وفي قلوبنا كلامٌ كثيٌر لم نقله. بسرعة دلف حسن إلى البيت توضأ وصلى ثم اتصل بأخته حسنية من خلال اسميهما تعتقد أنهما توأم وهذا صحيح فعلًا، لكنهما توأم غير حقيقي، ركَّب رقمها على الهاتف وانتظر قليلًا إلى أن ردت عليه فبادر بالتحية:

- السلام عليكم، حسنية ما أخبارك؟
- وعليكم السلام، بخير وأنت؟
- من الحامدين الشاكرين، كيف كان امتحان القبول؟ إذا لم تخني الذاكرة فاليوم ستظهر النتائج
- كنت أعتقد أنك لا تهتم لذا لم أخبرك بشيء، أصلًا أنت لا تهتم وأنت قريب مني فما بالك وأنت بعيد!

شعر حسن بتأنيب الضمير، لم يكن يعلم أن بروده سيوصل أخته إلى هذه الحالة، لكنه يتفق معها هو يحفظ أدق تفاصيلها وكيف لا ولقد تشاركا نفس الرحم فهي نصفه الآخر، لكن بروده اتجاه كل شيء بنى حاجزًا بينهما؛ حاجزٌ كان ليمتد لسنوات أخرى لولا حديثه مع ليلياس الذي جعله يراجع نفسه وتدارك الأمر وقال:

- لا أهتم؟ من أخبرك بهذه الكذبة؟! حسنًا أخبريني لقد تم قبولك صحيح؟ لا أريد سماع كلامٍ غير هذا أنا واثقٌ لا يمكنهم رفضك

فأنتِ أذكى مخلوقٍ في المجرة، ومن يرفضك فهو الخاسر الأكبر هيا بشريني.

- نعم لقد تم قبولي، ولكن كيف عرفت؟
- الله أكبر، الحمد لله، والشكر لله، هذه أختي التي أعرفها! تسألين كيف عرفت؟ لنقل إنك نصفي الآخر وأنا أشعر بما يشعر به نصفي اللطيف والجميل.

ضحكت حسنية وصمتت لعدة دقائق افترض حسن أن وجنتيها قد توردتا من إطراءه، صحيح أنها نصفه الثاني إلا أنه يمتلك الرقم السري لحسابها فاطلع على النتيجة قبلها ولما اطمئن قلبه اتصل بها. طال صمت حسنية ممَّا دفع حسن لينتشلها من صمتها قائلًا:

- هاه؟! ما الأمر يا فراشة ألا يستحق الأمر الاحتفال؟

ضحكت حسنية وقالت:

- لو كنت أعرف أن القرية سوف تجعلك لطيفًا هكذا لأرسلتك إليها منذ زمن!

وبدأت تضحك من جديد، شاركها حسن الضحكة وقال:

- جلوسي هنا مع أشجار التوت جعلني أدرك قيمة فراشتي وأنني لا شيء من دونها!

صمتت حسنية من جديد بعدما توردت وجنتيها وعضت بلطف على سبابتها، تعتقد أن بهذه الحيلة تخفف من خجلها لا أدري من أين تعلمتها لكنها لا تفيد على أي حال! ابتسم حسن يعلم جيدًا أن وجهها احمر خجلًا وأردف:

- أراهن على أنك صرت الآن أكبر حبة توت على وجه الأرض يا ترى ما طعمها؟

انفجرت حسنية ضاحكةً مما استدعى والدتها. لا يمكن لأم مهما كانت تجاهل أمر كهذا ولا تأتي للتحقق من الأمر. سمع حسن والدته في الجانب الأخير وهي تقول موجهةً كلامها لحسنية:

- ما قلة الأدب والحياء التي صرت أراها في قعر داري؟
- لكن يا أمي لا تفهمي الأمر...

قاطعتها أمها بغضب وسحبت الهاتف من يدها وقالت:

- لا أريد أن أفهم، دعيني أكلم رأس الفجل ذاك وحسابك عسير.

تابعت والدتها موجهةً كلامها للشخص الذي يوجد على الجانب الآخر من الهاتف:

- اسمعني يا رأس اللفت! إذا لم تدع ابنتي وشأنها سوف أتفاهم معك، متى تعقلون وتتقون الله؟ بنات الناس ليست لعبةً في أيديكم! دعني أسألك سؤالًا أترضى الأمر لأختك؟ هيا تكلم لماذا أنت صامت؟ أم أنك فالح في الغزل فقط؟ إن كنت رجلًا انطق بكلمةٍ واحدة!

ضحك حسن من كلام والدته، ورد عليها قبل أن تطلق المزيد من التوبيخات:

- بالله عليك يا حاجة اثبتي على رأي واحد هل أنا رأس الفجل أم رأس اللفت؟

اندهشت الحاجة فاطمة لمَّا سمعت صوته فهي تعرفه جيدًا طبعًا هل رأيت يوما أُمًّا تخطأ صوت فلذة كبدها وأجابته قائلةً:

- حسن هل هذا أنت؟
- ومن غيره يا حاجَّة

في الجانب الآخر انفجرت حسنية ضاحكةً بينما نظرت إليها والدتها بشررٍ قالت حسنية هامسةً:

- لم تعطيني فرصة لكي أشرح

تنهدت الحاجة فاطمة وأكملت كلامها الموجه لحسن:

- اعذرني يا ولدي أخبرني كيف حالك؟ وما سبب هذا الاتصال؟
- بخير يا أمي وداعليك بالخير لا تعتذري أنتِ فقط تريدين سلامة أختي لكن ألا تعرفين تربيتك؟ فهي لن تفعل هذا فلقد تلقت أحسن تربية من أحن وأرق حاجة فاطمة في هذه المجرة!

ابتسمت الحاجة فاطمة وعلت وجهها حمرةٌ خفيفةٌ فهي لم تعتد على هذا اللطف من ابنها، الوحيد الذي كان يلاطفها ويغازلها كان زوجها؛ والد حسن، استدركت الأمر وردت عليه:

- أعلم يا ولدي لكن الحرص واجب، فأنتم أمانة تركها الحاج قبل وفاته وعليَّ الحرص عليكم جميعًا أنت وأختك ويونس أيضًا.

سكتت الحاجة للحظات ثم أردفت:

- متى ستعود يا ولدي لقد اشتقت إليك؟
- في القريب يا أماه فقط ادعي لي

- وهل هذا يحتاج وصية يا ولدي؟
- ربي يحفظك ويبارك لنا فيك، أستأذنك عليَّ الإغلاق الآن سوف أذهب لأصلي العصر، في أمان الله يا أماه.
- في أمان الله يا ولدي

أقفل حسن الخط وشعر بفرحة كبيرة تغمره، شعر وكأن أجنحته لم تعد تسع غرفته من الفرح، أو كأن الفراشات تطير من قلبه فملأت غرفته، لم يكن يعلم أن الكلمة الطيبة تفعل الأعاجيب بقلب القائل والمتلقي، ابتسم وقال:

- شكرًا لك يا ليلياس أنا محظوظ بكِ

ذهب حسن ليأخذ سجادته ليقيم صلاة العصر فلقد صار محافظًا على صلاته مؤخرًا، بل إنه صار يشتاق للفرض قبل أوانه، أكمل صلاته وأخذ هاتفه ليتصل بأخيه يونس الذي يصغره بأربع عشرة سنة، يعلم جيدًا أنه وقت عودته إلى البيت رن الهاتف ثلاث رنات قبل أن يرد يونس قائلًا:

- السلام عليكم يا رأس الفجل!

ضحك حسن، يبدو أن يونس كان في البيت وسمع كل شيء ورد عليه:

- وعليكم السلام، يبدو أن الأخبار تنتشر بسهولة؟!

- كنت في البيت اليوم لم أذهب للملعب، وتعرف أن غرفتي قريبة من غرفة حسنية وقد سمعت أمي عندما كانت تتحدث بصوت عالٍ.
- هل تم إلغاء المباراة أم ماذا؟
- ومنذ متى وأنت تعلم عن المباراة؟
- وكيف لا أعلم يا كابتن ماجد فأنا أخوك الأكبر!

ضحك يونس وقال:

- يعجبني حسك الفكاهي الجديد هذا، ونعم تم إلغاؤها
- لماذا؟ خيرًا إن شاء الله
- هناك بعض الإصلاحات في الملعب، لكن لا تقلق لن يفوز فريقنا أبدًا الأمر واضح
- بل أنا واثق من فوزكم ففريقكم لديه لاعب واعد واسمه "يونس ميسي"!
- ماذا تقول؟ هل جننت؟
- بالعكس لقد تابعت مبارياتك كلها وحقًا يمكنني القول إن أسلوبك في اللعب يشبه ميسي!
- أولًا أنت تعلم أنه لا يروقني، وثانيًا لماذا تشبه أسلوبي بأسلوبه؟

ضحك حسن وحاول مجاراة يونس في طريقة كلامه قائلًا:

- أولًا بسبب قامتك القصيرة، وثانيًا بفضل سرعتك كما أنك مهاريٌّ للغاية أقصد يمكنك أن تجري بالكرة من أول الملعب لآخره وأن يتجاوز كل المدافعين، تجيد فعل كل شيء تقريبًا ربما، ما عدا الضربات الرأسية!

ضحك حسن قبل أن يردف:

- وهذا بسبب نعرفه جميعًا وهو قصر قامتك!

رد يونس منفعلًا:

- أنا لست قصيرًا أنا متوسط الطول، كما أنك تعلم أنني أريد أن أكون مثل رونالدو!
- حسنًا إنك سريع مثله، وبالمزيد من التدريب ستصبح أسرع، وبعد سنة أو سنتين سيزداد طولك وبعدها ستجيد التسديد من المسافات البعيدة والضربات الرأسية، صدقني ستكون نجمًا متألقًا لوحدك! لعلمك كنت أقصر منك عندما كنت في سنك والآن انظر إليَّ!
- حقًّا يا حسن؟! هل كنت قصيرًا مثلي عندما كنت في السادسة عشرة من عمرك؟

ضحك حسن ورد متهكمًا:

- وها قد اعترفت أنك قصير! ألم تقل قبل قليل أنك متوسط الطول؟ هاه أخبرني!

ارتبك يونس وبدأ يتلعثم، لكن حسن أنقذ الموقف وتابع كلامه قائلًا:

- نعم الحمد لله لم نخلق فتيات وإلا لكنتُ قزمًا بحجم حسنية ولا تخبرها بذلك

سمع حسن صوتًا أنثويًا يرد عليه من الجانب الآخر معاتبًا:

- ما الذي تقوله يا رأس الفجل؟

عضَّ حسن على أنامله يعلم أنه أفسد الأمر مع أخته، رد عليه يونس من الجانب الآخر:

- أنا شاب مطيع وعليَّ احترام أختي الكبرى

رد حسن ضاحكًا:

- لكننا توأم يا فالح!

أجابت حسنية من الجانب الآخر:

- أنا أكبر منك بخمس دقائق لذا احترمني!

ضحك حسن وأجاب:

- حسنًا يا فراشتي لكن لعلمك السنافر رغم صغر حجمهم إلا أنهم هزموا "شرشبيل"
- حسنًا سوف نرى ماذا ستفعل السنفورة بك يا شرشبيل أنت وهرك المعتوه هذا!!

لم يستطع حسن ويونس كتم ضحكاتهما فانفجرا ضاحكين بينما خرجت حسنية من الغرفة وأغلقت الباب بقوة عاد يونس لمكالمة حسن قائلًا:

- لقد تغيرت كثيرًا يا حسن ترى ما هو السر؟ على أي حال ابق هكذا ولا تتغير أبدًا، أستأذنك عليَّ الذهاب الآن أمي تنادي عليَّ إنه وقت الغذاء
- في أمان الله

أغلق حسن الخط وقال في نفسه:

- سر صغير ولطيف اسمه ليلياس!

شعر بسرور كبير عندما تحدث مع أهله لكن ذلك لم ينسه وفاة السيد عبد القادر لازال غير مستوعب الأمر لكنه فضل تناسي الأمر والدعاء له بالمغفرة والرحمة.

4

يوم جديد ونفس الروتين اليومي الذي يقوم به حسن قبل لقائه بليلياس، خرج إلى البستان وبدأ يستظهر ما حفظه بالأمس لكن ليلياس لم تظهر، بقي ينتظرها طويلًا لكنها لم تأتي، شعر بالإحباط مرت الدقائق فصارت ساعات ولم يظهر لها أثر. بدأ القلق يدب في أواصر قلبه، لكنه قررت ألا يظل مكتوف الأيدي، رغم أنه لا يعلم أن تعيش إلا أنه بقي يسير في البستان من دون وجهة تذكر، أفكار كثيرة اختلطت في رأسه لا يعلم ماذا يفعل؟ ولا إلى أين سيسير؟ قرر إبعاد هذه الأفكار عن باله وواصل سيره، فجأةً بدأ يسمع صوت بكاءٍ قادم من مكان قريب تبع مصدر الصوت حتى شعر أنه بدأ يقترب ثم نادى:

- ليلياس أهذه أنتِ؟ أجيبيني
- أنا هنا يا عم عالقة هنا!

أسرع حسن نحو مصدر الصوت وفعلًا وجدها كانت عالقةً بين الشجيرات لا تعرف كيف تخرج، حاول إخراجها لكن لم ينجح ثم قال لها:

- انتظري هنا سوف أذهب لإحضار سكين وأعود
- لا تتركني وحيدةً أنا خائفةٌ

ضمها حسن إليه في محاولةٍ بائسةٍ لطمأنتها ثم غاب دقائق قليلة ثم عاد ومعه سكين حاد وقنينة ماء، قطع السيقان الملتفة حولها فرحت ليلياس كثيرًا وعانقت حسن وقالت له:

- شكرًا لك يا عم الحمد لله لك استجاب الله دعائي
- الحمد لله أنك بخير قلقت عليك
- أنا آسفة أردت أن أسلك طريقًا مختصرةً لكي أحظى بالمزيد من الوقت معك لكن أعتقد أنني أضعت الوقت وعليَّ العودة الآن

حزن حسن وقال:

- لا بأس لا تعتذري لم تفعلي شيئًا
- أخبرتني ماما أن أعتذر عندما أجعل الشخص قلقًا عليَّ فليس من العدل أن تُدخل الخوف على قلب إنسان أو أن تتركه لخيالاته، أحيانًا بعض الأشخاص يغادرون حياتنا دون أي تفسير فنُهلِك أنفسنا بكثرة التفكير، لذا علينا أن نقدم الإجابات ما دمنا نملكها. حسنًا سوف أذهب الآن.

وقع كلامها كالعادة في قلب حسن، تذكر خطيبته سناء التي تركها دون أي تفسير، هكذا من دون مقدمات قرر فسخ الخطوبة، كان أنانيًا حينها لم يكن يهتم بكسر القلب الذي سيسببه لها، فتاة رقيقة كجناح فراشة يمكن لأي نسمة أن تكسرها فما بالك بعاصفة؟ عاد حسن أدراجه إلى البيت والتفكير يكاد يمزق عقله، لماذا لم يفكر في الأمر من قبل؟ أخذ هاتفه وبحث عن رقمها ثم اتصل بها، لكن هو يعلم جيدًا أنها لن ترد، لكن بعد رنتين سمع صوتها من الجانب الآخر، ذاب قلبه فهو يعرف جيدًا كم يعشقها لكن لم يخبرها من قبل بحقيقة مشاعره اتجاهها، صحيح أنهما كانا مخطوبين لكنه لم يتجاوز حدوده معها، لكن الظروف كانت أقوى منه فاختار الفراق، غاص حسن بين أمواج أفكاره لدرجة أنه لم ينتبه أنها ردت على اتصاله، كررت سناء التحية مرةً أخرى:

- السلام عليكم من معي؟
- وعليكم السلام، أنا حسن كيف حالك؟
- آه، حسن الحمد لله، ما سبب هذا الاتصال؟ هل حدث شيء للحاجة أو لحسنية؟
- لا تقلقي كلهم بخير، أردت فقط الحديث معكِ، أنا آسف يا سناء، لم أكن أريد أن يحدث ما حدث لكن تعرفين أنني شخص واقعي

لا أحب أن أعدك بشيء غير قادر عليه، تعرفين أن المشاعر وحدها لا تجلب الخبز و...

قاطعته سناء قائلةً:

- رغم أنك لم تقل شيئا لكن أخي عمر أخبرني بكل شيء؛ أخبرني بالظروف التي مررت بها وكنت أدعو الله أن يخفف عنك، صحيح أنني كنت أعلم كل شيء وأتفهمك لكن كنت أريد أن أسمعها منك والآن رغم أنك جئت متأخرًا إلا أنني على ثقة بربي أن لا شيء متأخرًا كل شيء يأتي في وقته المناسب.
- سعيد جدًا يا سناء الحمد لله لقد كنت أخشى كسر قلبك
- لا تقلق لم يحدث شيء، والآن عليَّ أن أغلق الخط لقد وصلت الحافلة، في أمان الله

هكذا انتهت المكالمة وقلبه كاد يطير فرحًا، لم يصدق أنها بعد كل هذا سامحته لا يدري هل يشكر عمر أم ليلياس؟ لكن كلاهما يستحق الشكر، كل واحد منا يحتاج أخًا وصديقًا مثل عمر ليخفف عنه الأيام الثقال. لا يدري كيف نام ليلتها لكنه فعل ذلك بصعوبة، كيف ينام وذلك الكم الهائل من الفراشات ترفرف في قلبه.

5

في اليوم التالي، ومع بزوغ أول شعاع لتلك الشمس الساطعة، استيقظ حسن من نومه العميق وبقي جالسًا على طرف سريره، ظل هكذا لفترة ليست بالقصيرة، وأمرٌ واحدٌ يشغل تفكيره من هي ليلياس؟ وماذا تفعل هنا؟ وكيف لفتاة صغيرة في عمرها أن تحدث هذه التغييرات في حياته؟ ظل يفكر طويلًا دون أن يهتدي إلى إجابات، لكنه على يقين أن هدية من الحياة. سطعت الشمس أكثر وخرجت من مخبئها، وكالعادة انطلق حسن إلى البستان، ولكن هذه المرة وجد ليلياس في انتظاره، كانت تجلس في مكانهما المعتاد بفستانها الزهري، وضفيرتها الصغيرة، ففرح أيما فرح وقال لها:

- يبدو أنكِ سلكت طريقًا مختصرًا هذه المرة، ألم تخافي من أن تعلقي؟
- لا لست خائفةً، فبابا يقول لي حديثًا يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسلم لا يلدغ من نفس الحجر مرتين. لذا أخذت حذري هذه المرة، ثم لماذا سأخاف وأنت هنا يا عم؟

- تعلمين أمرًا أود أن ألتقي بأبيك وأخبره أنه أحسن تربيتك
- ربما نلتقي يومًا مَا في الجنة

حزن حسن لما سمعه من ليلياس وقال متأسفًا:

- أنا آسف يا صغيرتي لم أكن أعلم أن والدك قد فارق الحياة

ضحكت ليلياس واستغرب حسن من الأمر وردت عليه:

- لكننا من فارق الحياة وليس بابا

اندهش حسن من قولها وقال مستفهمًا:

- من؟ ماذا تقولين؟

ابتسمت ليلياس وأشارت بسبابتها نحوها ثم نحو حسن وقالت:

- أنا وأنت فارقنا الحياة ألم تنظر إلى المرآة من قبل؟ لا انعكاس لك أو ألم تنتبه أنه لا ظل لك أيضًا

وقفت ليلياس أمام الشمس وتابعت:

- انظر لا ظل

صُدم حسن من هول ما سمع وما رأى، كيف مات؟ ومنذ متى وهو ميت؟ ابتلع ريقه بصعوبة وبدأ قلبه ينبض ويداه ترتجفان وبدأ يتصبب عرقًا، شعر وكأن الدنيا قد دارت به، كيف حصل هذا؟ أسئلة كثيرة تحوم حوله؛ ماذا علاقته بأهله التي أصلحها؟ ماذا عن سناء؟ ماذا عن عمر؟ الكثير من علامات الاستفهام لكن لا جواب لها، سواد عمَّ المكان ولم يعد وجود لا للبستان ولا لليلياس.

***

في مكان ما أصوات متداخلة، صفير ورنين، رائحة المعقمات والمخدر قد أغرقت المكان.

- دكتور.. دكتور يبدو أن المريض بدأ يستجيب
- هيا يا سادة عليكم الخروج الآن
- لكن، لماذا؟ ماذا يحدث؟

أصوات كثيرة لا نعلم من القائل ولمن يوجه الكلام، شيئًا فشيئًا بدأت الصورة تتضح؛ غرفة في المستشفى يتوسطها سرير، ونرى حسن ممددًا عليه وأجهزة كثيرة ملتصقة به، يداه ترتجفان، وجسده ينتفض، يقف بجانبه ممرضة شابة وطبيب غزا الشيب رأسه، والحاجة فاطمة تجرها حسنية إلى الخارج تنفيذًا لأوامر الطبيب، بينما عمر ويونس ينتظران

خارج الغرفة، بقيت الحاجة فاطمة تنظر من النافذة والدموع كالسيل على خديها، تحاول حسنية تهدئتها وهي منهكة أكثر منها، لكن لا جدوى منذ متى والغريق ينقذ الغريق. دقائق مرت وكأنها قرون، وأخيرا فُتح الباب وخرج الطبيب ووجهه يتهلل فرحًا وبسرعة انطلقت الحاجة فاطمة، ناسيةً ألم مفاصلها، وعجزها، لكن لا أحد يلومها ففلذة كبدها بين الحياة والموت منذ أسبوعين، سألت الطبيب في رجاء:

- بشرنا يا ولدي الله يبشرك بالخير

صمت الطبيب هنيهة قبل أن يكسر الصمت المطبق الذي عمَّ المكان:

- ابشري يا حاجة لقد استفاق حسن من غيبوبته

فرحت الحاجة فاطمة وكادت تطلق زغرودة لولا أن حسنية منعتها من ذلك، دخلوا جميعًا إلى غرفة حسن، قامت الحاجة فاطمة باحتضان ابنها وكيف لا وهذه قطعة من قلبها قد عادت من موت محتَّم، بدأ حسن ينظر حوله غير مستوعب ما الأمر، ألم يكن قبل قليل في البستان؟ لكن ماذا حدث بالضبط؟ نطق مستفسرًا:

- أين أنا؟ وكيف وصلت إلى هنا ألم أكن في القرية؟ كيف وصلتم إليَّ؟

وضعت الحاجة فاطمة يدها على فمها غير مصدقة ماذا يقول ابنها، نظرت إلى الطبيب نظرةً تعلوها الحيرة، لاحظ الطبيب تلك النظرة وقال موضحًا:

- لا تقلقوا يبدو أن حسن كان في هلوسة أثناء غيبوبته، صحيح أن الأمر لازال غامضًا، إلا أنني أذكر مقالًا عن سيدة استيقظت من غيبوبتها وعندما سُئلت عما رأته أخبرتهم أنها كانت تعيش في عالم مستقل، وبقيت مدةً لم تكن تفرق بين الواقع والخيال، لكن لا تقلقوا الأمر عادي يبدو أن آخر شيء تحدث عنه هو الذهاب إلى القرية لذا احتفظ عقله الباطني بهذه الفكرة .

رد عمر مؤيدًا كلام الطبيب:

- نعم آخر ما تحدثنا عنه أنا وحسن كان عن الذهاب للقرية، وعندما افترق عني أصيب بحادث ومن تم قمنا بنقله للمستشفى

أومأ حسن برأسه إيجابًا، بينما رد الطبيب قائلًا:

- الحمد لله على السلامة، استأذنكم عليَّ الذهاب الآن وربما إن كانت حالتك مستقرةً سوف تخرج بعد يومين

خرج الطبيب من الغرفة بينما نظر حسن لمن حوله وقال:

- إذًا كنت في غيبوبة، كم من الوقت؟

رد يونس:

- أسبوعان

صمت حسن وأردف بعد برهة من الزمن:

- أنا آسف حقًا لقد أقلقتكم عليَّ كثيرًا

نظر إلى أمه وأخته وتابع:

- لا تبكيا أرجوكما، أنا الآن بخير لقد سمعتما الطبيب سوف أخرج بعد يومين ويمكنكما الذهاب للمنزل والراحة سوف يبقى عمر معي

ردت حسنية:

- لكن يا أخي نريد البقاء معك و...

قاطعها حسن بحزم وقال موجهًا كلامه ليونس:

- يونس خذ حسنية وأمي إلى المنزل، التعب والإرهاق جليان عليكم اذهبوا وسوف آتي إليكم بعد يومين

رضخوا لطلبه ثم خرجوا من الغرفة، صوت آذان يصدح في الأجواء معلنًا عن صلاة الظهر ما إن انتهى المؤذن قال حسن لعمر:

- هلا ساعدتني لكي أصلي

ابتسم عمر لأن كلامه كان له أثرٌ على صديقه، ساعده في التيمم وأداء صلاته عندما أنهى حسن صلاته نظر إلى الغرفة لاحظ وجود الكثير من الأزهار فسأل عمر:

- ما كل هذه الأزهار؟
- يحضرها رجل اسمه جواد يبدو أنه سوف يأتي قريبًا غالبًا يأتي بعد صلاة الظهر

صوت طرقات على الباب سمعه عمر وقال:

- يا لها من صدفة!

فتح عمر الباب وظهر رجل في الأربعينيات من عمره يحمل باقة في يده وحياه بحبور:

- أهلًا يا سيد جواد
- أهلًا يا بني عمر، وعلى سلامتك يا ولدي حسن

ابتسم حسن ورد التحية:

- مرحبًا، الله يسلمك يبدو أنك من أنقذني أليس كذلك؟
- لا يا ولدي أنا فقط أحضر الأزهار إلى هذه الغرفة

تعجب حسن من الأمر وأردف متسائلًا:

- أزهار جميلة ترى ما اسمها؟

رد السيد جواد بكلمة واحدة:

- ليلياس

فغر حسن فاهه لم يتوقع أن يسمع هذا الاسم هنا، لم يعد يعرف هل هو في الواقع أم في خيال؟ نظر نحو زجاج النافذة ولما رأى انعكاسه تنهد وحمد الله في سره وتدارك الأمر، نظر إلى السيد جواد وسأله:

- يبدو أن هناك قصة خلف الأمر

أخذ السيد نفسًا عميقًا قبل أن يحكي قصته:

- نعم، قبل ثلاث سنوات كانت لي ابنة مريضة، أصيبت بفشل كلوي كانت في هذه الغرفة، لكنها لم تستسغ رائحة الغرفة فطلبت هذه الأزهار حتى تخفف من الرائحة وتزيل عنها التوتر،

وفي أحد الأيام أخبرتني قائلةً: "بابا هل يمكن أن أطلب منك طلبًا؟ هل تستطيع أن تحضر كل يوم هذه الأزهار إلى هذه الغرفة حتى لا يشعر قاطنها بالضيق وتكون حسنة جارية لي بعد موتي؟" بعدها بأسبوع انتقلت إلى رحمة ربها

تأثر حسن ومسح دموعه وقال:

- هل عندك صورة لها أريد أن أراها؟

فتح السيد جواد هاتفه ومده لحسن، كان حسن يدعو الله ألا يكون ما يفكر فيه، لكن ما إن رأى الصورة حتى فاض الدمع من مقلتيه، كانت كما رآها في غيبوبته بفستانها الزهري وابتسامتها اللطيفة أعاد الهاتف لجواد الذي دسه في جيبه وقال:

- بالمناسبة اسمها ليلياس

تنهد حسن تنهيدة طويلةً وقال:

- سوف أخرج بعد يومين لو سمحت أريد زيارة قبرها
- بكل سرور يا ولدي

خرج السيد جواد من الغرفة، وتبعه عمر بعد أن ودع حسن الذي ظل يحملق في السقف، كل ما مر به كان من وحي خياله لكنه سوف يطبقه على أرض الواقع.

لا أحد منا يعلم ما الصدفة التي قد تعيده إلى رشده وتنتشله من مستنقع الانتكاس والقسوة، إلى بستان الالتزام واللين، لكل منا فرصة ربما ضيعها، وربما مازالت ينتظرها، فمن حصل عليها فليتشبَّت بها ومن أضاعها فليستعدها، مادامت الشمس لم تشرق من مغربها والروح في مُستقرها فهناك فرصة للعودة.

6

بعد يومين...

خرج حسن من المستشفى رفقة عمر والسيد جواد وساروا جنبًا إلى جنب نحو قبر ليلياس، لم يستطع حسن إمساك دموعه، استغرب عمر من أمر صاحبه فحسن لم يبك حتى يوم وفاة والده فكيف يبكي على فتاة لا يعرفها؟ هكذا الناس عندما لا يعرفون بواطن الأمور يُؤوِّلونها على هواهم ما من أحدهم يعرف الحقيقة كاملةً، ولا أحد يعرف ما يكنه القلب. جلس حسن بجوار قبر ليلياس وبدأ يقرأ القرآن بصوته العذب، تأثر السيد جواد وعمر ثم عادوا إلى المستشفى حيث ركن عمر سيارته. عندما وصل حسن رآها هناك جالسةً في المقعد الخلفي، بسرعة دس يديه في جيبه حتى لا يرى عمر رجفة يده، ومن غير سناء قادرة على إذابة قلبه من الفرط الهيام والعشق، غريب أمره عندما يراها، رغم أن آخر مرة رأى وجهها كانت قبل ثلاث سنوات في يوم خطبتهما، فهي ترتدي النقاب ذلك اللباس الذي يجعلها درةً مكنونةً داخل محارتها. دخل حسن إلى السيارة وألقى التحية على سناء، وردتها عليه باستحياءٍ، وانطلقوا في

طريقهم نحو المنزل، استقبلته الحاجة فاطمة بالزغاريد، كيف لا وابنها عاد من موت محتم، عانقته بشدة وقبَّل رأسها، عانق حسنية ويونس الكل كان سعيدًا بهذه المناسبة السعيدة.

بعد أسبوع عاد حسن إلى مقر عمله، واتجه نحو مكتبه كالعادة، لكن سرعان ما اعتلت الدهشة ملامحه عندما رأى شخصًا غريبًا يجلس مكانه، شعر وكأن الدنيا دارت به، ألهذه الدرجة تم الاستغناء عنه؟ عمل لسنوات بجد وعندما مرض وجدوا بديلًا عنه؟ بسرعة نفض هذه الأفكار من باله واتجه نحو مكتب المدير، طرق الباب طرقتين فأذن له بالدخول، دخل حسن إلى المكتب وألقى التحية:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا بعودتك حسن يبدو أن بلاغنا لم يصلك بعد؟

ابتلع حسن ريقه بصعوبة وظل يدعو الله في سره ألا يكون الأمر ما يفكر فيه فهو لا يقوى على كسرة قلب أخرى، لاحظ المدير ارتباكه وأشار له بالجلوس وأردف موضحًا:

- لقد تم فتح فرع جديد من شركتنا في المدينة التي تعيش بها، وكما تعلم كل فرع يحتاج مديرًا ولهذا قد قمت بتعيينك مديرًا عامًّا

لذلك الفرع، فبصراحة لا أعرف شخصًا جديرًا بالمهمة غيرك، لذا مبارك منصبك الجديد أيها المدير العام حسن نجار.

من شدة الفرح قفز حسن من مقعده وعانق المدير، بعدها توقف لحظة وقال في نفسه:

- ماذا لو كان هذا حلمًا آخر؟

مال قليلًا نحو الشمس ونظر إلى الأرض فرح عندما رأى ظله على الأرض، خرج من مكتب المدير كطائر قد حرر من قفصه للتو، عانق أصحابه وزملائه رغم أن الفراق صعب لكن أحيانا لابد منه، هكذا هي الحياة فراق ولقاء. انطلق بسرعة نحو منزله لكن كان حذرًا حتى لا تصيبه حافلة أو سيارة مجنونة، صعد إلى شقته وجمع أغراضه ثم نزل إلى شقة السيد عبد القادر، طرق الباب، استقبله السيد عبد القادر ودعاه للدخول لكن حسن اعتذر قائلًا:

- أردت فقط توديعك يا عم وأعطيك مفاتيح الشقة لقد تم تعييني في مدينتي ولله الحمد
- مبارك لك يا ولدي، لكنك قد دفعت إيجار شهرين كاملين انتظرني لحظة لكي أعيد إليك ما دفعته
- لا داعي لذلك يا عم اعتبرها صدقة مني

دمعت عيون السيد عبد القادر وأمطر حسن بوابل من الدعوات التي وقعت في قلبه وأسرَّته كثيرًا. رجع حسن إلى مدينته، ووصل إلى منزله ما إن فتح الباب ذهلت الحاجة فاطمة من هول المنظر، نفس المشهد قبل أربع سنوات عندما عاد حسن إلى المنزل مكسورًا مطرودًا من العمل، لكن هذه المرة مختلفة، إنه يبتسم أم أنه الهدوء ما قبل العاصفة؟ قطع حسن سيل الأفكار التي تتدفق بعقل والدته قائلًا:

- افرحي يا حاجة ابنك صار مديرًا وتم تعيينه في هذه المدينة.

أطلقت الحاجة زغرودة أخرجت حسنية ويونس من غرفة المعيشة متسائلين عما حدث، أخبرتهما الحاجة بالخبر، قفزت حسنية وعانقت أخاها وفعل يونس الشيء نفسه.

- مبارك لك يا ولدي
- الله يبارك في يا أماه

تبادلت الحاجة وابنتها نظرات ذات مغزى، بينما يونس واقف كالأبله لا يفهم شيئًا، تنحنحت حسنية وقالت مخاطبةً حسن:

- حسنًا يا سعادة المدير العام ألا تنوي أن تجعل الفرح فرحتين وتضرب عصفورين بحجر واحد؟

ارتبك حسن وقال:

- ماذا تقصدين؟
- أنت تفهم جيدًا ما أقصده فأنا وأنت وجهان لعملة واحدة

ثم أنهت كلامها بغمزة وابتسامة، احمر وجه حسن فهو يعلم جيدًا ما تقصده، ويعلم جيدًا أن أمه وأخته لم تكونا موافقتين على فسخ خطوبته مع سناء، لكنها الظروف والآن بما أن الظروف قد تيسرت فهذا هو الوقت المناسب لاستعادة قلبه، ابتسم حسن ابتسامةً خجولةً وقال:

- هل تعرفين محلًا جيًدا يبيع الورد؟ أريد باقةً مميزةً أو ربما سأسأل السيد جواد فالأزهار التي كان يحضرها مناسبة

صرخت حسنية فرحًا وأطلقت الحاجة زغرودةً بهذه المناسبة السعيدة.

بعد يوم طويل حل الليل البهيم، حيث كان حسن يعيش في سكون، إلا أن في داخله أشياءً كثيرةً لا تهدأ ولا تسكن لكن هذه المرة مختلفة، مرة لا تشبه المرات، حتى أرقه في هذه المرة لا يشبه أرق الأيام السالفة، فلقد تعددت الفرحات؛ فرحة ترقيته، وفرحة عودة محبوبته إليه، فكيف للنوم أن يصل إلى مقلتيه لكن رغم كل هذا أغلق عينيه.

***

في حقل كبير شاسع المساحة لا متناهي الأطراف، لُوِّنَ بلون زهري فاتح، ومفعم برائحة ليست غريبةً عن حواسه، كان حسن يسير ببطءٍ وتريث، حتى لمح شخصًا محنيًّا يقطف بعض الأزهار هناك، اقترب حسن بحذر وعندما شعر أنه اقترب مسافةً كافيةً لتحري الأمر ابتسم وقال:

- من هنا؟

فرد الصوت ضاحكًا:

- أنا يا عم ومن غيري؟
- ليلياس؟ ما تفعلين هنا لقد اشتقت إليك كثيرًا

ركضت ليلياس نحو حسن وارتمت في حضنه، وقالت والدموع تجري على وجنتيها:

- وأنا أيضا اشتقت إليك، واشتقت إلى بابا أيضًا، لماذا ذهبت وتركني وحيدةً هنا؟

تأثر حسن ومسح دموعها وقال:

- لا تقلقي سوف أزورك كل يوم لن تكوني وحيدةً بعد الآن

ابتسمت ليلياس ومدت إلى حسن طوقا من أزهار الليلياس وقالت:

- ستحبه سناء كثيرًا!

ما إن مد حسن يده لكي يأخذه رن هاتفه معلنًا وقت قيام الليل استيقظ حسن من نومه شاعرًا بإحساس غريب تأمل نفسه في المرآة وقال:

- كان مجرد حلم تمنيت لو كان حقيقيًّا

تنهد بعمق وأردف محدثًا نفسه:

- ليتك معنا الآن يا ليلياس

كل واحدٍ منا يحتاج إلى ليلياس صغيرةٍ في حياته؛ لتنير دربه وترفع الغشاوة عن بصيرته، ليلياس ليست محصورةً في فتاة صغيرة، قد تكون؛ موقفًا، قد تكون حادثًا، قد تكون شخصًا عابرًا في حياتك، المهم شيءٌ قد ترك أثرًا فيك، فكم من شخصٍ تغيرت حياته ونظرته بموقفٍ صغيرٍ وكان هذا الأخير ليلياس الخاصة به، لا تحصر نفسك في البحث عنها فقط اعزم على التغيير وهي ستبحث عنك.

***

بعد طول انتظار، جاء اليوم الموعود، تمت الخطبة وعقد القران بين حسن وسناء، والعرس بعد أسبوع، لم يكن هناك داعٍ لإطالة فترة الخطوبة فقد كانا مخطوبين لمدة طويلة، مرَّ الأسبوع ثقيلًا على حسن

وكأنه طير حبس في قفصه فاشتاق لفرد جناحيه والطيران عاليًّا، أسبوع عد خلاله حسن الثواني والساعات، إلى أن جاء اليوم المنتظر. لم يكن عرسًا كغيره من الأعراس، بل كان عرسًا بسيطًا في ظاهره لكنه فخم في جوهره وفي نظر الحاضرين، بعد طول انتظار أطلت عروس النور سناء، لم يصدق حسن ما رأت عيناه، لدرجة أنه وضع يده على قلبه خشية أن يخرج من مكانه، كل هذا وهي بنقابها، ماذا لو نزعته؟ ربما لخر مغشيًّا عليه، انتهى العرس، بساطة من دون اختلاط ولا مجون، الكل فرح وسعيد، من قال أنه لابد من الحرام لنكون سعداء؟ لابد له أن يعيد النظر في كلامه!

خرجا من البيت والدعوات تصاحبهما، اختلطت الدموع بالضحكات، وسار العروسان وصوت تلك الأنشودة يرافقهما:

عَلَى جَبِينِ سَعَادَتِي وَأَفْكَارِي ... تَجْرِي الحُرُوفُ بِأَشْوَاقٍ وأَزْهَارِ.

هَذِي هَيَا قَدْ سَرَتْ لِلسَّعْدِ فِي أَمَلٍ.... تَرْوِي الجَمَالَ بِأَلْبَانٍ وأَطْيَار

عَرُوسَةُ النُّورُ تَاجُ البَدْرِ يُبْرِزُهَا .... نَجْمًا يَشِعُّ بِأَنْوَارٍ وأَنْوَارِ.

مُبَارَكٌ زَوْجَهَا جَاءَتْ عَلَى دُرَرٍ .... زَوْجُ النَّقَاءِ بِتَتْوِيجٍ وإِبْهَارِ.

كُلُّ القُلُوبِ تَنَاهَتْ فِي السَّنَا فَرَحًا ... بِالحُسْنُ يَبْرُقُ فِي حُسْنٍ وإِصْرَارِ.

ولأول مرة في حياته، لا يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلات، أمسك حسن يدها، كان الأمر غريبًا في البداية لكنه كان منعشًا لروحه كثيرًا، لم يعد قلبه يحتمل أكثر من هذا فلقد صام عن الحرام لسنوات وبعد طول الصيام أتى العيد أخيرًا، اقترب منها أكثر وهمس في أذنها برقة:

- أحبكِ!

لا يدري هل ابتسمت أم أن وجنتيها توردت؟ لكن ما يعرف أنها ردت عليه بما كان ينتظره:

- وأنا أيضًا!

7

بعد عام..

في رواق المستشفى؛ بالتحديد قسم الولادات، تجلس الحاجة فاطمة رفقة حسنية ويونس على الكنبة، بينما حسن يسير في مكانه ذهابًا وإيابًا، شعرت حسنية بالدوار من حركته فنهرت قائلةً:

- توقف يا هذا لقد أصبتني بالدوار

رد عليها يونس بتهكم:

- زوجته هناك فكيف له أن يطمئن فقط لينفذ أمر أخته البلهاء؟

أجابت حسنية متصنعةً التهكم:

- الآن بدأت أغار منها
- نعم فأنت العمة الشريرة!

أخرج لسانه وتابع ساخرًا:

- بصراحة يليق بك دور الحرباء

نظرت إليه حسنية عاقدةً جبينها وردت على سخريته:

- اسكت يا وجه الغم والهم

بدأت تلطم خديها بلطف وأردفت نائحةً:

- آسفة يا أبنائي خالكم هذا لن يدعكم تنعمون بورث أمكم

قامت الحاجة بلكم كل منهما برفق على كتفه وقالت:

- أي أبناءٍ وأنتِ لم تتزوجي بعد؟ وأنتَ يا يونس ألن تعقل؟ هذا مكان محترم وفرا شجاركما التافه إلى حين عودتكما وخروج سناء سالمةً

ضحك حسن واحتضن أخته قائلًا:

- بل ستكونين أروع عمة في المجرة يا فراشتي لا تهتمي بكلام هذا المعتوه
- كل هذا من أجلك حسن لنخفف عنك توترك

جرت يونس إليها واحتضنته وأردفت:

- تعرف جيدًا أنني أحب يونس فلقد ربيته بنفسي

كان عمر جالسًا بعيدًا عنهم، يخطف نظرات صغيرة ثم يغض بصره مرةً أخرى، لابد أن الحب قد عبث بخيوط قلبه، في هذه اللحظة رفعت حسنية نظرها فوجدت عمر ينظر إليها، احمر وجهها ثم أشاح بصره بعيدًا، يبدو أن الحب لم يعبث بقلب عمر فحسب وإنما تجاوز الأمر واستولى على قلب حسنية، فيا ترى ما نهاية هذه القصة؟

فجأةً فُتح باب الغرفة وخرجت ممرضة منها وقالت:

- مبارك عليكم السيدة سناء بخير يمكنكم الدخول

شكر حسن الممرضة ثم دخلوا جميعا إلى داخل كاد أن يدخل يونس أيضا لولا أن حسنية قامت بمنعه حتى تأكدت من أن سناء ترتدي نقابها ثم سمحت له بالدخول، كانت في المهد صغيرةً ولطيفةً حملها حسن برفق بين يديه قبَّلها وقبل رأس زوجته، قلبه يدق بشدة، كيف لا وهو يحمل قطعةً من روحه، وجزءً من قلبه، أذَّن في أذنها وتشهد في الأذن الأخرى، كان سعيدًا جدًا ربما أسعد مخلوق على وجه الأرض. حينها قالت حسنية مقاطعةً هذه الأجواء:

- ماذا قررتم أن تسموها؟

نطق يونس مستغربًا:

- وما شأنك أنتِ؟ هذه ابنتهما.

تبادل حسن وسناء نظرات ذات معنى وأومت سناء برأسها موافقةً بدت الحيرة على وجوه الحاضرين لابد من أن هناك سر دفين وراء هذه النظرات ليقول حسن بعدها مبددًا هذه الحيرة التي علت الوجوه:

- ليلياس.. سميتها ليلياس

تمت بحمد الله

بتاريخ 25 يونيو 2024

توضيح

فضلت أن أدع هذا التوضيح حتى النهاية حتى لا أحترق عليكم الأحداث وتضيع عليكم متعة القراءة بدأت خيوط هذه القصة تنسج نفسها في عقلي بعد قراءتي لمقال تحت عنوان:

In a Coma, I Dreamed a Whole Other Life—I'm Still Dreaming It Why am I still dreaming what I dreamed while in a coma ?

وفي هذا المقال سيدة تحكي عن تجربتها مع الغيبوبة وما بعد الاستيقاظ منها، والتي عانت منها لسنوات فلم تعد تعرف الفرق بين الواقع الخيال، فمن هنا كانت نقطة البداية وتطورت الأحداث شيئًا فشيئًا، حاولت قدر الإمكان الإحاطة بكل جوانب الحياة وتصليحها بأسلوب لطيف أتمنى أن تعجبكم القصة، والأهم من ذلك أن تجعلكم تعيدون النظر في حياتكم، وهذا الكلام موجه لنفسي أولًا ثم إليكم ثانيًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أختكم في الله خولة أعبيد

إصدارات أخرى للكاتبة:

همسات قلبي: كتاب نصوص وخواطر

رحلة الهوية: رواية قصيرة

ليلياس

شعر بفرحة كبيرة تغمره؛

وكأن أجنحته لم تعد تسع غرفته من الفرح،

أو كأن الفراشات تطير من قلبه فملأت غرفته!

لم يكن يعلم أن الكلمة الطيبة تفعل الأعاجيب

بقلب القائل والمتلقي.